الشابي والزمن

مشروع قراءة في جدلية القطيعة والتواصل من خلال ديوان أغاني الحياة

بقلم: محمد الازهر باي*

لقد أنجزت هذه المحاولة بدافع القناعة بأهمية مكانة الزمن في ديوان أغاني الحياة ومن منطلق الشعور بأن الخطاب الشعري لدى الشابي مقام بالأساس على ازدواجية في العلاقة بين الشاعر والزمن أي على التواصل والقطيعة تينك العلاقتين المعبّرتين في الحقيقة عن صراعات في داخل الشاعر وتناقضات أملتها حالات نفسية مختلفة.

لم يكن الشابي كما هو معلوم أول من تطرّقوا الى الزمن ولا هو بآخرهم إذ ما انفكّ الإنسان عبر الأعصر يتمثل الزمن مخاطبا واعيا بيده الإسعاد والإشقاء، فكان التراث العربي مفعما بمواقف تتراوح بين الإكبار والتودّد الى هذا الكائن الموهوم حينا والازدراء والنفور منه حينا آخر. فلا يكاد يخلو

* أستاذ بالمعهد الأعلى لأصول الدين.

من تلك المعاني أثر ولاسيما الشعري منه باعتباره أفضل مسرح للعواطف. لقد ثار أمرؤ القيس على ليله وناشده الرحيل قائلا:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل

بصبح وما الإصباح منك بأمثل(1)

واعتبر أبو البقاء الرنديّ الشاعر الأندلسي عبر قصيدته في رثاء الأندلس أن الزمن غشوم مساءاته أضعاف مسرّاته:

هي الأمور كما شاهدتها دول

من سرّه زمن ساءته أزمان

وعلى نقيض هذين الشاعرين فقد ارتاح الفرنسي لامرتين للزمن وظل يستبقيه كما يتراءى من خلال قصيدته البحيرة(2).

وما الشابي إذن إلاّ أحد أولئك الذين تحاوروا مع الزمن فنشأت بينهما علاقات قطيعة وتواصل.

1- الشابي والماضي

يقسّم الماضي إلى كونيّ وقوميّ وشخصيّ وهو أيضا بعيد وقريب. أما ما يستوقفنا هنا فهو ذاك الماضي الشخصيّ القريب الذي عاشه الشاعر ومايزال عالقا بذاكرته ماثلا نصب عينيه. فشاعرنا لم يحفل بالتاريخ ولم يتعلّق بالماضي التليد تعلّق جيل شوقي من أفراد المدرسة الكلاسيكية الجديدة أولئك الذين تغنّوا بالأمجاد الزائلة واستعرضوا مراكز الاشعاع الثقافيّ كبغداد ودمشق وقرطبة وذكّروا بالأحداث المجسّمة للرقيّ الحضاريّ. لقد عبّر الشابي عن موقفه الرافض لتقديس التراث من خلال محاضرته التي ألقاها سنة 1929 على منبر

الجمعية الخلدونية وعنوانها «الخيال الشعريّ عند العرب» وفيها رفض الماضي التراثيّ ورمى من ظلّ مرتبطا به بأنه:

يحيا على رمم القديم المجتوى

كالدود في حمم الرماد الخابي(3)

وشبّهه بالعجوز الذي يقضي يومه في استحضار ذكريات ماضيه الجميل:

واعبد الأمس واذكر صور الماضي

فدنيا العجوز ذكرى شبابه(4)

لانه مستحضر لماضيه مغيّب لحاضره:

والشقيّ الشقيّ في الأرض قلب

يومه ميّت وماضيه حيّ(5)

والملاحظ أنّ صاحب «أغاني الحياة» قد قصر همّه وصادق حبّه على ماضيه الشخصيّ القريب فبدا شديد التعلّق به لا يبرحه، وجاءت جملة النعوت التي أضفاها عليه تنويها به وتجسيما لما بينهما من تواشج، ارتبط بعضها بالحواس وخاطب بعضها الآخر في القارىء وجدانه. فماضي الشابي، كما صوّره(6): جميل: 23/5 — غضير: 150/16 — زاه: 146/1 — وضّاء: 170/3 — سعيد: 184/10 — حلو: 90/1 — عذب: 213/1 — محسود: 42/4 — بعيد: 82/5 — مفقود: 74/4، 128/12 — 133/8 — ميّت: 251/12 — قدسيّ: 216/3 — ساحر(7): (160/2، 252 — معبود: 251/16 — مغنّ: 158/1 — معذب: 160/4 — مبكيّ: 178/1 — 179/1 — مضحوك عليه: 233/1

— عهد شباب: 13/208 — لحظة حب(8): 3/82 — 4 — فرصة عناق ومضاجعة: 14/156 — دنيا طهارة وسذاجة: 6/217 — أرض حرية(9): 3/170 — عالم سلام(10): 5/23 — فضاء ابتسام: 8/252 — واحة أحلام: 5/168 4/176.

يلوح لنا من خلال تأمّلنا لهذه اللوحة التي خصّ بها الشاعر ماضيه مدى التجاوب بينهما، فهما متعايشان في إطار التواصل إذ كل ما في الماضي حلو، فحتّى عذابه وإن أوهمنا بقطيعة فما هو في الحقيقة إلاّ ذلك العذاب الذي يورثه الحبّ فيستعذبه العاشق ويلتذّ بلذعه.

ونلمس أيضا مؤشرا للتناغم بين الشاعر وماضيه عبر سعيه المتواصل إلى إنشاء علاقة الإضافة بينهما (أمسي - فجري...). إنّ أغاني الحياة التي ترنّم بها الشابي لناطقة كلها بمعنى التواصل بين الشاعر وماضيه، فهو لعمري في نظره لعالم اللذّة والسعادة والنقاء بحقّ وكفى.

2- الشابي والحاضر

الحاضر هو حاضر الشاعر ذاته، هو ساعة الانشاء ولحظة ولادة الكلمة، هو حاضر انتكس له إثر ماض تولّى فبكاه بدموع الأسى بعد أن بكى منه وتمنّى زواله(11)، لقد شعر صاحبنا بتفاهة واقعه وانتهى إلى حالة تشبه اليأس ذلك اليأس الذي أملاه الزوال وأورثه الفناء. وأطبق القبر على ساكنه إلى الأبد ولم يعد للشاعر من مطمع في البعث بيد أنه لم يفتأ عالقا بالراحل ملتفتا ذات اليمين وذات الشمال علّه يصادف في

الحاضر مصدر سلوى ومورد نسيان لثكله المرير فإذا الحاضر:
وعر: 3/111 — فضّ — شديد: 12/106 — عصيب: 14/53 — حسود: 4/42 — ضيّق: 1/173 — مظلم: 6/25، 11/113، 9/208 — 10 — ملّ: 1/101، 7/109، 13/144، 13/169، 13/186، 1/201 — ثقيل: 3/186 — مرهق — مثير: 9/217 — محزن: 1/158 — مبك: 8/23، 13/208 — 14 — معذب: 6/123 — بلاد غربة: 2/47 — 13/48، 10/169 — ساحة تيه: 8/112 — 9 — 9/113، 2/168 — مصدر شقاء وبؤس: 2/102، 3/124، 4/151، 10/169 — علّة يأس(12): 4/74، 1/112 — 2 — داع الى تمني الموت: 9/169 — ميدان حرب: 1/257 — زمان عمى: 1/111، 10/113 — مصدر ظمإ: 3/112، 2/168 — فصل عواصف: 562/123 عالم كآبة 9/126، 6/169 — ركح غناء كئيب: 6/169 — سماء حبّ سجين: 1/287 — سحر وشقاء: 15/125 — نقاء وشوب: 11/125 — صباح ولا صباح: 12/125 — رحابة وضيق 13/125 — طرب ووجوم: 14/125.

نستشفّ ممّا كنّا بصدده أن الشاعر لم يعد يعيش مع الحاضر ذلك الدفء والحنان اللذين عرفهما بين أحضان الماضي. فهو قد ودّعهما وغادر دنيا الفرح والاطمئنان ليحيا حياة كئيبة مفترشا بساط الحزن ومرتديا ثوب الأسى، ظاهره الغبطة وباطنه الشجان إنّ التنافر مخيّم على علاقة صاحب «أغاني الحياة» بحاضره والكلّ يشير إلى وجود قطيعة حقيقيّة

بينهما. إنّ حاضر الشاعر لم يقف عند تكشير أنيابه له بل تعدّى ذلك الحدّ موغلا في الإساءة إليه بحرمانه هو وإسعاف غيره بخمس فرص على الأقلّ للتواصل من خلال ما أتاحه لهذا الغير من نقاء وضياء وفسحة وسحر وغناء. نسجّل أيضا تفاعلا سلبيّا بين الشاعر وحاضره فكلاهما فاعل في الآخر فعلا هدّاما. فهذا الشابي ملّ حاضره وسخط عليه وذاك الحاضر أغضب شاعرنا وأرهقه وأرّقه وعذّبه وأبكاه وأحزنه وألقى به في بلاد غربة وضياع وكآبة وشقاء وعمى وأسر، وغيّب صباحه وزجّ به في دنيا الشوب والضيق والوجوم، واليأس ودفع به في النهاية الى تمنّي الزوال. ولئن توفر عنصران يوهمان بحضور علاقة تواشج وهما الحبّ والغناء فان المستكنة لشعر الرجل المستشرف لحقيقته يهتدي لامحالة الى أن الحبّ في بوتقة الحاضر ليس حبّا سعيدا مشرقا يبيت فيه المحبّ طليقا بل هو سجن في غياهبه وقع المحبّ جاثما على ركبتيه لا يبرح مكانه، وأنّ الغناء ليس غناء المسرّة بل هو عويل المكتئب ونواح الثاكل يندب حظّه.

نشير أيضا إلى انعدام الإضافة كأحد مؤشرات الانفصام في العلاقة، فشاعرنا لم يعمد إليها مرّة واحدة في غضون تطرّقه إلى الحاضر وكأننا به يتبرّأ منه ويشنّها عليه شعواء لا تبقي ولا تذر.

3ـ الشابي والآتي

إنّ للآتي بعدين يساوي مدى أحدهما عمر الكون كله ويقدّر الآخر بعمر الشاعر وهو موضوع اهتمامنا في السياق الراهن

والآتي في «أغاني الحياة» هو الأمل مقابل اليأس الذي كان مستوليا على الشاعر في حاضره. إنه ذلك الأمل الذي كان يحدوه ويوهمه بعودة الروح إلى فقيده أو بأنّ نبض الحياة لم يزل فيه ممّا جعله توّاقا إلى آت سعيد ذي فضاء أرحب يصبح له تجاوزا لمأساة حاضر أليم فتمنى لذلك أن يكون آتيه عالم جمال وفنّ وطهر وقداسة يعيش فيه وحيدا بين أحضان الطبيعة:

عيشة للجمال والفنّ والإلهام والطهر والسنى والسجود(14)

إنّ آتي الشابي هو ذلك الآتي الذي طالما انتظره ولمّا يأتي، هو آت:

بعيد: 113/4، 133/1 ـ مجهول: 133/5، 12، 14 - 158/1 ـ مستراب 204/6 ـ تتعايش على ركحه جدليّتان إحداهما جدليّة البعث والفناء أو التجلّي والخفاء والأخرى جدليّة الديمومة والفناء أو الثابت والمتحوّل.

أ ـ جدليّة البعث والفناءينقضي الحاضر لحلول الآتي وتنتفي رسومه وبالتالي فالولادة موت والوجود عدم وللأيام صولة تأتي على الأماني ليصبح ما شيّدته عفاء(15). هي أيام كذوب لعوب بل:

هي مثل العاهر عاشقها تسقيه الخمر وتطرده(16)

وينتاب الشاعر ضجر وتتملكه حيرة فإذا هو يتساءل عن سرّ الحياة وما تخفي الليالي:

نحن نمشي وحولنا هذه الأكـــوان تمشي ولكن لأية غاية

نحن نتلو رواية الكون للمـــو

ت ولكن ماذا ختام الرواية(17)

ثمّ تستحيل الحيرة إلى يأس ظلّ معه الشـابي ينشد خوض غمار تجربة ثانية مناقضة للأولى وهـي تجربة الموت استنادا إلى إيمانه بـالبعث وحياة بعد الموت فيصبح الموت بداية لحياة جـديدة وهكـذا ينتقل فكر الشـاعر من الاتجاه الأفقيّ القـائل بسير الأحـداث سيرا تطوّريّـا تقـدّميا لا يعـرف التراجع إلى الاتجاه الـدائريّ المؤمن بعودة الفـائت، المتبنّـي لمقـولة إعـادة التاريخ لنفسه. يئس الشابي إذن من حاضره وتاق الى الرحيل عن هذه الدنيا:

جفّ سحر الحياة يا قلبي الدا

مي فهيّـا نجرّب الموت هيّـا(18)

طلب الموت علّـه يكـون لـه أخـفّ من الحيـاة وقـديما قـال المتنبي:

ذلّ من يغبط الذليل بعيش

ربّ عيش أخفّ منه الحمام(19)

سيشـهـد اتي الشـــابي حـالات ولادة أو بعث من نــاحيـة وحالات فناء وزوال من نـاحية أخرى. فضمن الأولى نشير إلى الربيع: 104/1، 4 — الوشاح: 25/7 — الصباح: 25/6، 93/1، 97/3، 115/8، 235/14 — السـلام: 36/11 — الثـــورة: 281/4 — اليقظـــة: 65/3، 165/2 — الكـــلام: 92/1، 2، 165/3 — الحقّ: 65/3، 6 — الجزاء: 65/5 — الأمل: 57/2، 150/13 — القـداسة: 257/15 — 16، 278/5 — الموت: 136/9، 159/3، 167/2، 272/4 — السعـــادة: 299/7 — 8 — الكمال: 206/1 — الخلـــود:

1/206 — الرفعة: 1/256 — الهوان: 1/241. الفـرح: 7/89 — الغناء: 5/114 11/150 — اللذّة: 12/115 — الحقيقـة: 5/25، 7/49 — 8، 14/53 — الـرحمة: 7/89، 6/114، 5/116 — الـوحـدة: 8/150 — ذكـريـات الحبّ: 14/96 — إشباع الرغبات: 4/114.

أمّـــا حــالات الفنــاء فهي في جلّــها وليـدة حــالات الـولادة والبعث نذكر منها:

الشتــاء: 4/104 — الظـلام: 8/115، 6/25، 3/97 — الأسى: 8/115 4/104 — البـلايـا: 11/36 — الفصــول: 14/235— النوم: 3/65 2/165— الصمت: 3/165 — الظلم: 3/65 — اوجاع الحياة: 2/57 — اليأس: 13/150، 7/299 — الوشــاب: 5/278 — الاثم والبغضــاء: 5/278 — الحيـــــاة: 3/159، 4/272، 7/299، 2/167 الشمس: 3/159 — الشطآن: 3/159 — القمم: 3/159 — الشقاء: 8/299 — البكـاء: 7/299 — الكـآبـة: 9/48 — 10 — الفـؤاد: 14/53 — الجروح: 5/116 — العـدد (الجماعـة): 8/150 — سحـر الهوى: 14/96 — الـذكريـات: 15/196 — الشبـــاب: 10/162 — الحسن: 10/162 — الايــام: 1/93، 1/175 — البناء: 2/172.

ب ـ جدليّة الفناء والديمومة

لقد تجلّــى ممّــا سبق أن آتي الشـــابي عرف جدليّــة الولادة والفناء أو البعث والفناء ونحــاول فيما يلي إبراز طرفي جدليّــة

ثانية هي جدليّة الفناء والديمومة أو الانسحاب والبقاء أو أخيرا التقهقر أمام عسف الزمان والصمود في وجه قانون الحدثان. وقد تطرّقنا في الفقرة الأخيرة إلى عناصر الانسحاب، لذا لن نذكرها ثانية ونشير إذن الى الطرف الثاني المنطوي على عناصر الدوام وهي التالية:

الاكتئاب(20): 48/ 9. 10 ـ الحزن: 53/ 14 ـ الشقاء(21): 217/ 12 ـ الغربة: 126/ 13 ـ الذكريات(22): 199/ 2 ـ الأفعال: 136/ 10 ـ التحدي: 257/ 2 ـ 3 ـ الغناء: 257/ 8، 11 ـ سحر الحياة: 235/ 12 ـ جمال الروح: 162/ 11 ـ الفؤاد(23): 196/ 15 ـ 16.

لئن بدت ملامح العلاقة بين الشاعر وماضيه أو حاضره واضحة مستقرّة فقد باتت مع الآتي متأرجحة تارة بين التواصل والانسجام وطورا بين القطيعة والانفصام. ويتمثل التواصل في أنّ الآتي سيأتي على كثير من مظاهر العسف ومصادر الألم لدى الشاعر ليحلّ محلّها بشائر الرحمة وبواعث الاطمئنان التي كانت فيبقي عليها أو لم تكن فيوجدها. أمّا القطيعة فمتّصلة بالصبغة الاعدامية لهذا الآتي إذ هو سيذهب بالجمال والحبّ والحياة ويقضي على الكلّ بالرحيل كما إنّه سيتيح لبعض عناصر الشرّ الدوام ليظلّ الإنسان شقيّا أبدا.

والملاحظ أنّ علاقة التواصل تبقى دوما المسيطرة إذ تمثّل 46 حالة من جملة 68 أي نسبة 67٪. ولعله من السائغ إلحاق حالات القطيعة مع الآتي بظروف ذاتية للشاعر وأزمات حادّة انتابته فإذا هو فاقد الأمل مغلظ القول دونما هوادة.

لقد تجلّى لنا من كلّ ما سلف ذكره في شأن علاقة الشابي

بالزمن أنه لا غبار على علاقته ببعدي الماضي والحاضر فالاولى تواصل والثانية قطيعة ممّا يفيد وجود هذين البعدين في علاقة تقابل. أما علاقة الشاعر بالآتي فمتراوحة بين هذه وتلك.

واتضح لنا أيضا أن الشاعر قد أسبغ على آتيه كثيرا من نعم الماضي وقليلا من شوائب الحاضر وبدا ماضي الشاعر وآتيه نورين مشعّين على قلبه وحاضره بينهما ظلمة سحيقة. لهذا قضى صاحبنا حياته عالقا بماض جميل رافضا لحاضر أليم توّاقا الى آت أفضل، يمناه إلى الماضي ويسراه إلى الآتي وصدره بينهما يتأجّج أسى وحسرة.

الهوامش :

(1) المعلّقة، البيت...

(2) يقول في هذا الصدد: O temps, suspends ton vol! et vous, heures propices, suspendez votre cours!

(3) أغاني الحياة ص 275 ط. تونس 1970

(4) اغاني الحياة ص 251.

(5) أغاني الحياة ص 253.

(6) يشير الرقم بعد النعت الى الصفحة والسطر في ديوان أغاني الحياة.

(7) ينبغي التذكير بما للسحر من أهمية في نظر أعلام الرومنسية وخاصة هوجو إذ يعتبر أن الشاعر ساحر le poete mage وأن السحر من أبرز المميزات التي بها ينفذ إلى أعماق الناس ويوجّههم إلى حيث يشاء.

(8) عرف الشاعر في ماضيه حبّ الحياة وحبّ الوالدين وحبّ المرأة وحبّ الآخر عموما ولا غرو وهو القائل:

لا أحبّ النسيم إلاّ اذا هبّ على كلّ حاضر أو باد.

(9) لا يخفى علينا ما للحريّة من ثقل في فلسفة الشابي ذلك أنه كان لاهجا بها دونما انقطاع كمثل قوله:

خلقت طليقا كطيف النسيم وحرّا كنور الضحى في سماه

(10) السلام هو الآخر ضالة شاعرنا الذي ما برح يخوض حربا ضروسا ضدّ

جيوش الألم وطغاة العالم وأفراد شعب غبيّ قابع في الذلّ قانع بالهوان.

(11) هذا يذكّرنا بقول أحدهم:

ربّ يوم بكيت منه فلمـــــــــــــان انقصى قد بكيت عليه

(12) هو يأس مأتاه رؤية الشاعر كل شيء يواكب سير الزمن وشعبه جامد ثابت في مكانه لا يبرحه وقد قال في هذا المعنى:

كل شيء يساير الزمن الما   شي بعزم حتى التراب ودوده
كل شيء الآك حيّ عطوف   يؤنس الكون شوقه ونشيده

(13) يتعلق الطرف الاول من كل طباق في الحالات الخمس الاخيرة بالغير ويتّصل الطرف الثاني بالشاعر.

(14) أغاني الحياة 185/15. انظر ايضا 171/2ـ 4 6ـ 7 و173/4 8.

(15) أغاني الحياة 34/1ـ 4

(16) أغاني الحياة 159/12.

(17) هـذا يندرج في سيـاق تأملي فلسفيّ عام عـرفنـاه لدى العـديد من معـاصري الشـابي ومنهم ايليـا أبـوماض. أمّـــا امـر المصير فسيظلّ طلسما لا قبل لامـرىء بفكّ رموزه وهو مـا يفيده قوله، تعـالى: ﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غـدا وما تدري نفس بأي ارض تموت..﴾

(18) اغاني الحياة 209/15ـ 16.

(19) الديوان ص 164. ط دار صادر بيروت 1384 هـ/ 1964م.

(20) سبق ان رأينـا لدى الشـابي أن الحزن يـزول بزوال الحاضر وحلـول الآتي. انظر أغاني الحياة ص 48 89، 104، 115.

(21) وامن الشـاعـر هنا بـديمـومـة الشقاء، وقـد قـال بغنـائه في سياق غير هـذا (8/299)

(22) اعتبر الشـابي في سياق آخـر انّ كلّ شيء فان بما في ذلك من ذكـريات. انظـر أغاني الحياة ص 196/15.

(23) قال الشابي قبل هـذا بأن فؤاده الى زوال محتوم (53/ 10). وهو يـؤكد هنا بأنّ فؤاد المحبّ لن يفنى.